# تقرير يومي

**بثينة الناصري**

لمدة ثلاثة شهور سبقَتْ تقاعدي كُلِّفْتُ بمهمّة مراقبة مشاغبٍ سياسيّ وكتابةِ تقارير يوميةٍ عن حركاته وسكناته. وهذه من المهام التي طالما قمتُ بها طوال حياتي الوظيفية خَير قيام، ولم يكن في الأفق ما يوحي ولا كان يخطر على البال بأنّ هذا التكليف الأخير سيكون مختلفاً عما سبقه.

**تقرير أوّل**

(انه في الساعة الثامنة من صباح يوم السبت ١٩٩٥/١١/١٨ تسلّمْتُ واجبي لمراقبة منزل المدعوّ حميد عبد الحق الكائن في ٤ شارع النصر. وقد نزل المذكورُ في الساعة التاسعة والنصف وتمشّى مسافة ٢٠٠ متر باتّجاه الشارع الرئيسي ثم استقلّ سيارَة أجرة. تبعتُه بأخرى حتى توقّف أمام مبنى صحيفة **الحضارة**، وهبطَ فهبطتُ وراءَه وانتظرتُه خمسَ ساعات بالتمام خرج بعدَها مع اثنين من الشباب أحدُهما يضع نظارةً طبيّة والآخر له شاربٌ كثّ. وقف الثلاثةُ يتحدّثون حديثاً لم أستطع الاقترابَ منهم لأسمعه ثم ابتعد الشابان ومشى المذكورُ باتّجاه السوق حيث توقّف عند بائع فاكهة واشترى برتقالاً ثم أشار إلى سيّارة أجرة واستقلّها وكنت وراءه حتى وصلنا البيت.

في تمام الساعة الخامسة مساءً جاء الشابُّ الذي يضع نظارات طبيّةً وتمّ ذُكره آنفاً، وهو يحمل حقيبةَ أوراق، ودخل المنزل وخرج منه بعد ٤٥ دقيقة. ولم يحدث شيءٌ حتى الساعة العاشرة مساء حينَ خرج المذكورُ وهو يرتدي ملابسَ رياضيةً وأخذ يمشي بسرعة وأنا وراءه حتى وصل الشارعَ الخلفي فأخذ يعدو عدواً خفيفاً وأنا وراءه من أوّل الشارع إلى آخره ثم اجتاز عدّةَ شوارع جانبية حتى رجع إلى شارع النّصر ودخل المنزل ولم يخرج منه بعد ذلك).

كان صوتُ لهاثِهِ يلفح أذنيَّ وهو يجري أمامي، وأنا أمشي بخطواتٍ خفيفة سريعة أكاد أكتم أنفاسي المتلاحقة خشيةَ أن يكتشف وجودي. حتى إذا ابتعد مسافةً طويلة وكاد يغيب عن نظري في عطفة شارعٍ جانبيّ، حثثتُ السيرَ وهرولتُ على أطراف أصابعي لئلاّ يُحدث حذائي الحكوميُّ جلبةً في هدأة الليل. وسرنا على هذا المنوال خمسةَ أيام قبل أن تطرأ على ذهني فكرة. ضبطت الوقت الذي تستغرقه هرولةُ الساعة العاشرة اليومية فإذا هي ٣٠ دقيقة. في الليلة التالية حينما غادر المنزل مساء مرتدياً ملابسَه الرياضيّةَ لَبَدْتُ في مكاني الخفي وعيناي على ساعتي. وكما توقّعتُ ما إنْ مرّتِ الدقيقةُ الثلاثون حتى رأيته عائداً متقطّعَ الأنفاس فابتسمتُ وأنا أشكر الرّجل في سرّي على التزامه التامّ بروتينه اليومي. وفي تقرير الأيّام التالية كنت أذكر خطّ مشوار الرجل الليلي وكأنّي أتبعه أقربَ إليه من ظلّه، حتى جاء يومٌ مرّ فيه الوقت المحدّد دون أن يعود.

رفعتُ رأسي منتبهاً وتلفّتُ حولي مذعوراً، ونقرتُ ساعتي عدّةَ مرّات لئلاّ تكون قد اختلّتْ. ولكنْ مرّتْ ساعةٌ واقتربنا من منتصف الليل وإذا به راجعاً بطيءَ الخطو هادِئَ النفس يحمل رزمةً لم أتبيّنْها تحت إبطه. وَجمتُ في مكاني حتّى إنّي لم أتحسّب لإمكانيّة رؤيته إيّايَ.. أين كان خلال هاتين الساعتين؟ وما الذي يحمله؟ كيف لي أن أعرف؟ وماذا سأكتب في تقريري لذلك اليوم؟ أخيراً لم أجد بداً من إغفال هذه السقطة في التقرير ولكنّي من يومها ما عدت أدعه يغيب عن ناظريَّ لحظةً واحدة.

كان المدعوُّ حميد عبد الحق طويلَ القامة نحيفَ البنية خفيفَ شعر مقدَّم الرأس. في عينيه الضيّقتين يلوح مكرٌ ودهاءٌ، ويغطّي فمَه الباسمَ دوماً شاربٌ أنيقٌ يختلط السوادُ فيه بالبياض.

**تقرير**

(انه في الساعة التاسعة من صباح الجمعة ١٩٩٥/١٢/٢٢، وبعد استلامي واجبي بساعة، أطلّ موضوعُ المراقبة من نافذة علوية ونادى فتحي البوّاب الذي انطلق داخل المبنى بسرعة وبعد قليل خرج وهو يقبض على بعض العملات النقدية ومشى باتجاه السوق. وعندما عاد قطعتُ الطريق عليه وسألته سؤالاً

(*) أغنية شعبية تونسية.

عابراً وأنا أتفحّص ما يحمله. كان كيساً يضم خمس بيضات، وكيساً آخرَ ملوّثاً بآثار دهن طعام، وكان يتابّط جريدة لم أتبيّن اسمها. ثم تركني ودخل مسرعاً. قبل صلاة الجمعة وحين كان بعضُ شباب الحيّ يلعبون كرة القدم في الشارع تحت المنزل رقم ٤ كما هي عادتهم كلّ يوم جمعة، نزل المدعوّ حميد عبد الحق بملابسه الرياضية، وعندما سلّمَ بصوت جهوري على الشباب التفّوا حوله. كان يطبطب على أكتافهم وهو يحدّثهم حديثاً طويلاً دون أن أستطيع الاقتراب والاستماع. فجأة تفرّق الشبابُ إلى فريقين انضم المذكورُ إلى أحدهما ولعب بخفّة ومهارة حتى إنّه سجّلَ خمسَة أهداف قويّة. وكان الشباب من كلا الفريقين يهلّلون مع كل هدف ويصفقّون).

أخذتني قدماي إلى حيث يتحلّق المتفرّجون حول الملعب.. وجدتُني أصفّق بحماس لكلّ هدف يسجّله حميد عبد الحق.. بل إنّي كنت أتلفّت وأنظر في العيون وكأنّي أشهد الناسَ على ما يربطني به من صلة وثيقة.. وقد كان حقّاً يستحقّ الإعجاب بمهارته وحيويّته اللتيْن فاقتا شباباً أصغر منه سنّاً. وكدتُ مرّةً أو مرّتين أبوح لجيراني المتفرّجين بسرّ لياقته التي طالما أنهكتني في الهرولة وراءه كل مساء. بعد الهدف الأخير رفع حميد ذراعيه وأعلن اعتزاله اللعبَ وغادر راكضاً نحو البيت.

لم أكن في عجلة من أمري.. كنت أعرف أنه لا يخرج صباحَ الجمعة للصلاة أو أيّ مكان آخر، وأنّي قد أنتظر حتّى هبوط اللّيل قبل أن يطرأ جديد.

كان قد مرّ أكثرُ من شهر على مراقبتي إيّاه حتى صرتُ أعرف كلّ تفاصيل حياته: أصحابه ومريديه، طعامَه وشرابَه.. أعرف مثلاً أنّه يعيش وحيداً بلا أسرة لكنّه يعيش حياة اجتماعية حافلة.. يزور ويزار.. أصدقاؤه من كلّ الأعمار.. غالباً ما يضع كفّه على كتف الشاب منهم وهو يحدّثه حديثاً ودياً. كان يقف على باب البيت دقائق طوالاً وهو يتحدّث أو يستمع لرفيقه قبل أن يحييه ويدلف إلى البيت. كان يتصرّف وكأنّه يمتلك كلّ الوقت.. فلم أره متعجّلاً إلاّ ساعةَ ذهابِهِ إلى المكتب صباحاً. في أحيان كثيرة كنت أسائل نفسي إذا كان قد أحسّ بوجودي. ولكن إنْ كان قد أحسّ به حقّاً، فذلك ممّا لم يبد عليه ولم يغيّر شيئاً من عاداته. وقد كان هذا يعذّبني بشكل ما.. كنت أتمنّى لو أنه يراني ويعمل على مراوغتي، لأن هذا سيكون اعترافاً منه بوجودي.. ولكن أنْ يتصرّف وكأنّي كائن غير مرئيّ لا يَحسب له حساباً؟ لقد كان ذلك شيئاً أكثر مما يُحتمل. لقد راودتني نفسي أن أرتكب عمداً غلطةً ما لأعلن عن وجودي.. وأحياناً أخرى كنتُ أبكّت النفس لتهافتي وأعجب كيف - بعد كل سنوات العمل الطويلة - تكون مشاعري بهذه الرخاوة. هل هو أثر التقدّم في العمر؟ أم أنّ هذه المهمّة هي الأخيرة قبل إحالتي على التقاعد؟

غير أنّ ما يرضي ضميري أنّ تقاريري كانت شاملة وافية لا تشوبها شائبةٌ أو نقصان، وإنْ وَجدتُ أنّه كلّما ازدادت تقاريري اليومية تفصيلاً زاد تعلّقي بالرّجل.. وكنت أرى في هذا غرابةً لا تفسير لها، ولا سيّما أنّني حين استلمتُ المهمّة كنتُ قد حُذّرتُ بحزم من أنّ موضوع المراقبة شديد المكر والحيطة.

**تقرير**

(يوم ١٩٩٥/١٢/٣١ مرّ عادياً طوال الصباح، ولكن بعد صلاة العصر كانت هناك حركة غير طبيعية داخل البيت رقم ٤ شارع النصر. فقد راح البوّاب وجاء أكثر من مرّة محمّلاً بالأطعمة والفاكهة.. وقبل المغرب بقليل هبط حميد عبد الحق حاملاً حقيبة جلدية ومشى ناحية شارع جانبي وتوقّف عند أحد البيوت المعروفة ببيع الخمور بعيداً عن أنظار الحكومة.. دخل البيتَ وخرج بعد قليل مثقلاً بقناني الخمر، على ما بدا واضحاً من انبعاج جلد الحقيبة وانتفاخها في أكثر من موضع. في حوالي الساعة العاشرة مساء تقاطر على البيت الكثيرُ من الأشخاص.. وجوه كنت أعرف بعضها، وجاء بعضهم برفقة نساء يرتدين ملابس سهرة).

تذكرتُ فجأةً أنّه في هذه الليلة يحتفل النّاس بنهاية عام وإطلالة عام جديد. كان البرد شديداً. التففتُ بمعطفي الخفيف ونفخت أنفاساً حارّة في باطن كفّي.. وأخذت أروح وأجيء لأبعث الدفء في أوصالي. اقتربتُ من النّار التي أوقدَها الحارسُ الليلي. حييتُهُ ووقفتُ أتدفّأ. ردّ تحيّتي باقتضاب ولم يسألني شيئاً. كان قد تقبّل وجودي طوال الليالي الماضية ويخيّل إليّ أنّه كان يحدس مهمّتي وأنّه لم يجرؤ على سؤالي لإدراكِهِ وجهةَ عملي فآثر السلامة. تبادلنا حديثاً قصيراً حول برودة الطقس.. والمشاكل المتوقّعة التي يمكن أن يثيرها السهارى والسكارى هذه الليلة. حانتْ منّي التفاتةٌ إلى النافذة العلوية للبيت، فرأيتُ ظلالَ أشخاص تتحرّك عبر الضياء المنبعث من الثريّا الكبيرة التي كنت أستطيع رؤيتها من مكاني. ولا أدري كيف راحت أفكاري لبيتي القابع في ذلك الحيّ الفقير.. بيتنا الذي لا ينيره غيرُ فانوس نفطيّ. تراءتْ لي امرأتي تغطّ في نومها بين أجساد أولادنا الخمسة، غائبةً عمّا يحدث بين سنة تمضي وسنة تجيء؛ فالسنوات في بيتنا واحدةٌ بل إنّ

نهارنا يشبه ليلنا لأنّ نور اللّه الذي يُشعّ كلّ صباح على الخلق لا يدخل البيت الغارق أبداً بالظلمة!

قطع أفكاري انفجارُ ضحكاتٍ نسائية. رفعتُ رأسي إلى النّافذة المضاءة وابتسمت. كنت أحسّ بشكل غامض أنّي جزء من هذا العالم الذي أضعه صوب أنظاري ليلَ نهار.. هذا العالم الذي صرت أعرف تفاصيله كما أعرف مسامَّ جلدي. فركتُ كفّيَّ في لهب نارِ الحارس الليلي ثم حييته وأنا أغادرهُ إلى مكاني المعهود. كنت أريد أن أختلي بنفسي وأنا أحدّق بكل جوارحي في النافذة العليا. هل أرى حقيقة أم أنّه خداع نظر؟ خُيِّل إليَّ أنّي أرى ظلالاً تتمايل على صوت الموسيقى الصادحة عبر الزجاج والجدران.

وفيما كانت عيناي تتسلّقان النافذة في محاولة لاستجلاء ما يحدث.. انطفأ النّور وَسَادَ ظلامٌ عدةَ ثوانٍ ثم زعق الضوءُ مع هتافات وتهليل حتى غطّى على صوت الموسيقى. تفحّصت ساعتي.. كانت الثانية عشرة.. شعرتُ بالبهجة تغمرني. إذن ها قد ماتت السنة القديمة، راحتْ بشَرِّها وخيرها في طيّ الظلام.. ومع انبلاج النّور ولدت سنة جديدة.. سنة خير إن شاء اللّه. كانت هذه هي المرّة الأولى التي أكون فيها جزءاً من هذا الحدث. وجدتُ نفسي أضحك ساخراً وأنا أتذكّر أمّ الأولاد التي تغفو الآن غافلةً عن الدُّنيا وما يجري فيها. ثم طرأ على ذهني أنّه لا شيء تغيّر حقّاً: فها أنّي مازلت في موقعي تحت البيت رقم ٤، كتبتُ عنه صحائف من التقارير في السنة التي ماتتْ وسأكتب من الغد مع بداية السنة الوليدة تقاريرَ أخرى، فما الذي تغيّر بالنسبة لي أو بالنسبة لحميد عبد الحقّ؟ أنا موجود في لوح قدره عبر سنة فاتت وسنة قادمة. أيّةً سخريةٍ: أن يضحك الرّجل ويمرح هذه الليلة دون أن يعرف أنّ هناك رقيباً يحصي عليه أنفاسه!

تراءى لي وجهه الباسم دوماً رغم عينيه الماكرتين. شعرت بفيض من الألفة نحوه وشيء من الأسى، وسمعت نفسي أتمتم:

– كل سنة وانت طيّب.. يا حميد يا بن عبد الحق.

ولكن الأيّام التي تلت كانت تحمل أكثر من جديد. فما إنْ مرَّ أسبوعان حتى بُلِّغتُ بانتهاء مهمّتي. لم أدر لحظتها هل كان ذلك يعني رفعَ المراقبة أم أنّ شخصاً آخر قد حلّ محلّي. لم يكن لي أن أسأل أكثر ممّا ينبغي. ولَمْ تُوَكَّلْ إليَّ أيّةُ مهمّة أخرى، بل كان عليّ أن أقضي الأيّام الباقية بانتظار تسوية راتبي التقاعدي بين جدران المديرية. في أوّل يوم بعيداً عن حميد عبد الحق شعرت بافتقاد روتينه الذي صار نهجَ حياتي لمدّة ثلاثة شهور.

قضيتُ ذلك اليوم وأنا أكتب في خيالي تقاريرَ وهميةً: الآن خرج إلى المكتب.. الآن عاد.. هل اشترى اليوم برتقالاً؟ لا بدّ انه يتهيّأ الآن لرياضته اليوميّة.. وأرى ابتسامته الهادئة وهو يضع يده على كتف محدّثه. وكان إحساسي بالضياع في الأيّام التالية أشدّ حدّةً على غير المتوقّع.. فبدلاً من الانغمار في جلبة العمل داخل المديرية ازداد شراسةً توقي إلى ذلك الروتين الذي غادرته مرغماً.

وفي البيت سألتني امرأتي:

– مالي أراك قلقاً؟

– لا شيء... لكنّي غير معتاد على قضاء كل هذا الوقت في البيت.

– وماذا ستفعل إذن حين تُحال على التقاعد؟

تساءلتْ بنبرة ساخرة.

ولم يطل الوقت حتى ألفيتني أستيقظ ذات يوم مدركاً أن وقتاً طويلاً قد صار ملكي. بدأت أخرج إلى المقهى المجاور. كنت أجلس وأطلب شاياً وبعد قليل أشرع بالقلق وآخذ في استطلاع ساعتي بين حين وآخر. لقد أزف موعد وصوله.. وأظل أتململ على الكرسي وأستعيذ باللّه حتى أرغم نفسي على مغادرة المقهى إلى البيت.

ولكني في أحد الأيّام لم أطق صبراً، فعزمت أمراً. خرجتُ قبل الظهر بقليل وعيني على الساعة. كان قد مضى أكثرُ من شهر على انقطاعي عن ذلك البيت في شارع النصر، وكان عليَّ أن ألحق به ساعة رجوعه.

هبطتُ الشارعَ أخيراً وكأنّي أعود إلى أهلي وناسي. تفرّستُ في الوجوه التي أعرفها والتي مازالت كما عهدتها وكأنّ شيئاً لم يتغيّر. نظرتُ إلى السّاعة. لم يبقَ إلاّ دقائق على وصوله إذا كان مايزال ملتزماً بنهجه. لم أشأ أن أتخفّى في مكاني القديم. تمشيتُ على مهلي. ثم أعدت النظرَ إلى الساعة ورفعت رأسي، فإذا بعينيّ تصطدمان بعينيه. كانت تلك أوّلَ مرّة تلتقي عيوننا. توقف كلانا، ودون أن أدرك وجدتني أمدُّ له يدي كما لو كان صديقاً قديماً:

– السلام عليكم.. كيف الحال؟

صافحني باقتضاب وهو يردّ:

– وعليكم السلام.. وكيف حالك يا عم صالح؟

كانت المفاجأة حقيقية:

– اللّه؟ تعرفني.. وتعرف اسمي؟

شملني بعينيه الماكرتين وهو يقول:

– صالح عبد الصمد.. متزوّج وعندك خمسة أولاد وأُحِلتَ على التقاعد من أسبوع.

هتفتُ بدهشة:

– ولكنّك تعرف كل شيء عنّي!

ضحك وقال وهو يضع يده على كتفي: «لقد افتقدناك يا رجل.. كيف الحال؟».

**بغداد – القاهرة**